الفصل الخامس

جريمة الاحصاء

ومن حكايتين مشهورتين بين حكايات سفرى صمويل وأخبار الأيام . نعلم أن « يهوه » أبدى كراهيته فى مناسبة من المناسبات ، نحو القيام بتعداد الشعب اليهودى • ويبدو أنه كان يعد هذا العمل جريمة أبشع من جريمة غلى اللبن أو المشى على عتبة البيت • فنحن نقرأ أن « يهوه » أو ربما الشيطان ، قد أوحى الى الملك داود بفكرة مشئومة ، وهى أن يقوم بتعداد قومه • ومهما يكن مصدر هذا الوحى على وجه التأكيد ، لأن الكتاب الدينيين يختلفون حول هذا الموضوع ، فان نتيجة هذا العمل ، أو على الأقل عاقبته ، كانت حلول الكارثة ببنى اسرائيل ، فقد تناقص عدد الاسرائيليين اثر ذلك التعداد مباشرة نتيجة انتشار وباء الطاعون ، ونظر الناس الى هذه الكارثة بوصفها جزاء طبيعيا لجريمة عدهم • بل ان خيالهم المتهيج صور لهم ، وقد أحاط بهم شبح الطاعون من كل صوب ، شبح «ملاك الخراب » ، وهو واقف بين السحب مشهرا سيفه فوق « أورشليم » ، تماما كما حدث زمن الوباء الكبير الذى حل بمدينة « لندن » ، وذلك اذا اعتمدنا على رواية « ديفو » عند ما ازدحمت المطرقات بالناس وقد توهموا انهم أبصروا شبحا مفزعا يتماوج فى الهواء • ولم يلق الشبح الذى توهمه الاسرائيليون بسيفه جانبا ، كما لم يكف الناس المكلومون عن التجول فى شوارع أورشليم ، الا عند ما اعترف الملك داود الآثم بجريرته ، وعند ما قدم التضحية لتهدئة غضب الرب •

وليس اعتراض « يهوه » أو بالأحرى اليهود على تعداد الناس ،

سوى مثال لعقيدة عامة كان يؤمن بها كثير من الشعوب الجاهلة عندما كانوا يأبون كل الاباء أن يعد أفرادهم ، أو رءوس قطعان ماشيتهم أو ممتلكاتهم بصفة عامة • ويبدو أن هذه الخرافة الغربية ، اذ أنها تعد كذلك بحق ، مألوفة لدى زنوج افريقيا • فعند قبيلة « الباكونجو » التى تسكن أعالى نهر الكنغو ، « يكون الحظ العاثر حليف المرأة ان هى عدت أولادها عدا متتاليا ، لأن الأرواح الشريرة ترهف السمع الى عددهم فتصيب عندئذ بعضهم بالموت • وبالمثل فان الناس لا يرغبون فى الحصاء عددهم ، لأنهم يعتقدون أن هذا من شأنه أن يجتذب انظار الأرواح الشريرة اليهم ، فيموت بعضهم أثر ذلك • فقد حدث فى عام ١٩٠٨ ان أراد حكام ولاية الكنغو أن يقوموا باحصاء المواطنين بقصد جباية الضرائب • فأرسلوا ضابطا مع بعض الجنود ليقوموا بتعداد السكان • فثار الأهالى وأوشكوا على أن يشنوا الحرب ضده ، لولا أنه كان برفقة عدد كبير من الجنود • وليس من غير المتحمل أن تكون هناك معارك قد نشبت بين البيض والسود فى بقاع أخرى من افريقيا ، لا بسبب رفضهم لدفع الضريبة ، بل بسبب معارضتهم لعدهم ، وذلك خوفا من أن تستمع الأرواح الى عددهم فتقضى عليهم » • ومثل هذا يحدث بين قبيلة « بولوكا » أو « بانجالى » التى تسكن أعالى الكنغو ، « فالمواطن يتطير كل التطير اذا عد أولاده ، بل انه يعادى هذه الفكرة كلية ، لأنه يعتقد أنه اذا كان قام بعد أولاده أو اذا ذكر عددهم على الوجه الصحيح ، فان الأرواح الشريرة سوف تسمعه ، فتخطف بعض أولاده إثر ذلك • ومن ثم فانك اذا سألته هذا السؤال البسيط وهو : « كم عدد أولادك ؟ » ، فانك بذلك تحرك مخاوفه وتهيج تطيره • ومن ثم فانه يجيبك على التو : « لست ادرى كم عددهم » • فان أنت ألححت عليه فى السؤال ، فانه يخبرك بأن عددهم ستون أو مائة أو أى عدد آخر يخطر بباله • بل انه يفعل هذا مع غير أولاده الذين يتعاطف معهم تعاطفه مع أولاده ، فلا يذكر لك عددهم على وجه التحديد وانما يذكر عددا كبيرا يدعو الى

التســـاؤل • وهو لا يفعل هذا بقصد خداع المتسائل ، بل يقصد خداع الأرواح الشريرة التى تعيش فى كل زمان ومكان » •

وبالمثل فان قبيلة « ماساى » التى تسكن افريقيا الشرقية لا تقوم بعد أفرادها أو حيواناتها خوفا من أن يتخطف المـــوت رجالهـــم أو حيواناتهم وفقا لتصورهم • ومن ثم فانهم يعدون الحشد الكبير من الناس أو الحيوانات بالعشرات أو بالمئات أو الألوف • فاذا كـــان المعدود جماعة صغيرة من الناس أو الحيوانات ، فانهم يعدونهم عدا كليا فى حذر بالغ ، دون أن يذكروا الرقم على وجه التحديد • أمـــا الذين توفوا من الناس ، أو ما توفى من حيوان ، فانه يعد عدا منتظما ، لانهم لايخافون على هؤلاء من نقض عـــددهم • « وتأبى قبيلة » « واساناى » التى تسكن شرق افريقيا البريطانى كل الإباء أن يعـــد أفرادها خوفا من أن يموت أحد الذين عدوا بعد ذلك بزمن قصير » • ولمـــا كانت قبيلة « أكامبا » ، وهى قبيلة أخرى فى نفس المنطقة تهتم كل الاهتمام بثروة قطيعها ، فانها تحرص على اتباع بعض العـــادات الخرافية المحددة ، والا لحق الشر بقطعان المـــاشية • ومن بين هذه العادات الحرص على عدم عد رءوس القطعان • فاذا عاد القطيـــع الى القرية ، فان مالكه يلقى مجرد نظرة عليه ليتبين ما اذا كان رأس منه قد فقد • ولا يقتصر تحريم العد على المـــواشى فى هذه القبيلة ، بل يتعداها الى كل الكائنات الحية ، وبصفة خاصة البنات • وقـــد تحدث أحد الثقات عن هذه العادة عند هذه القبيلة فقـــال : « ان هذه القبيلة لديها بعض التطيرات ، فيما يبدو ، فيما يختص بعد قطعـــان ماشيتها • فالرجل الذى يملك قطيعا كبيرا من المـــاشية لا يعرف عدد رءوس هذا القطيع ، ولكنه يرقبه هو أو زوجته فى أثناء رحيله ليرى ما اذا كان رأس تميزه علامة خاصة ، قد فقد • واذا كان رب الأسرة يعرف بطبيعة الحال عدد أولاده ، فانه لا يرغب فى أن يخبر أى فرد خارج أسرته بعددهم الحقيقى • وهناك رواية تحكى أن رجلا كـــان يدعى « موندا وانجولا » ، كان يعيش فى تلال « ابيتى » • وكان لهذا

الرجل عدد كبير من البنين والبنات الذين كان يزهو بهم ويقول انه يستطيع بمساعدتهم أن يقاوم أى هجوم من قبل « ماساى » • وذات ليلة فاجأته قبيلة « ماساى » وقتلته هو وأولاده • وقد نظر الناس الى هذا الحادث بوصفه جزاء طبيعيا لزهو هذا الرجل بعدد أولاده » • وإنه لمن الصعوبة بمكان أن يعرف الشخص الغريب عدد أفراد أسرة من أسر قبيلة « أكيكويو » ، وهى قبيلة تسكن شرق أفريقيا البريطانى ، ولو معرفة تقريبية • وسرعان ما يدرك المتحدث الغريب من الأمهات أن الحديث حول عدد الأولاد على وجه الدقة يعد مجلبة للشر • ومثل هذا العزوف عن عد الأفراد يتفق مع مقت الإسرائيليين فى الزمن القديم لعد الأفراد • أما اذا شاء المسئول أن يجيب سائله اجابة مهذبة عن عدد أولاده ، فانه يقول له : « تعالى معى وأبصرهم بنفسك » • وتعتقد قبيلة « جالا » فى شرق افريقيا ، أن عد القطيع يعد فألا سيئا ، وأنه يحول دون تكاثره • وبالمثل تعتقد قبائل الهوتنتوت أن عد أفراد المجتمع أو جماعة من الجامعات علامة على حدوث شر كبير ، فهم يتوقعون اثر ذلك أن يتوفى أحد أفرادهم • وقد قيل إن مبشرا قام بعد عماله من الأهالى ، وهو جاهل بهذه العقيدة ، فدفع حياته ثمنا لهذا الخطأ •

ويبدو أن عادة التطير بين الناس ، تنتشر بصفة عامة فى شمال افريقيا • فقد قيل ان اعتراض الجزائريين على الحكام الفرنسيين بسبب سعيهم وراء القيام باحصاء السكان ، كان يرتكز الى حد كبير على تحكم هذه العقيدة فى نفوسهم • والا يقتصر هذا الاعتقاد على عد الاشخاص ، بل يتعداه الى عد مكاييل المحاصيل ، وهو عمل له طابع مقدس من وجهة نظر بعض الشعوب • فالشخص الذى يعد مكاييل الحبوب فى « وهران » لا بد أن يكون فى حالة من الطهارة الشعائرية • وهو بدلا من أن يعد المكاييل عدا تصاعديا منتظما ، أى يقول : واحد واثنين وثلاثة وهكذا ، فانه يقول : « باسم الله ، واحد ، بركتان ، اثنان ، يا كرم النبى ، ثلاثة ، سنربح بأمر الله ، أربعة ، فى عين الشيطان ، خمسة ، فى عين ابنه ستة ، الله يمنحنا البركة ، سبعة ،

وهكذا حتى يصل الى عدد اثنى عشر فيقول : الكمال لله • ويحدث مثل هذا فى فلسطين عندما تعد مكاييل الحبوب • فيقول كثير من المسلمين عند الكيل الأول : الله واحد • وعند الكيل الثانى : ليس له ثان • ثم يذكرون مباشرة العدد ثلاثة وأربعة • « وهناك أعداد كثيرة يتشاءم عرب فلسطين من ذكرها ، ومن بينها العدد خمسة • ولذلك فهم بدلا من أن يذكروا هذا الرقم ، فانهم يقولون : « يدك » ، اشارة الى عدد أصابع اليد الخمسة • ورقم سبعة يعد كذلك رقما شؤما وهو أمر يثير التعجب ، ولذلك فهم يمرون عليه دون ذكره ، أو انهم يذكرون كلمة « بركة » بدلا منه • وعند ذكر العدد تسعة يقول المسلم : « صلوا على النبى » • كما أنه لا يذكر العدد احدى عشر • فالشخص الذى يعد ويصل الى الرقم « عشرة » ، يذكر رقم اثنى عشر بعد ذلك مباشرة • وربما كان الغرض من عدم ذكر الأعداد المفردة هو خداع الأرواح الشريرة التى ربما تتبع فى انتظار سرقة المحصول أو اتلافه ، والتى قد تكون من الغباء بحيث يغيب عنها فهم هذه الطريقة الغريبة فى العد •

ويراعى سكان جزر « شورتلاند » التى تقع فى غرب الباسفيك ، اتباع بعض الشعائر والتقاليد عند بناء بيت الزعيم ، فعند تسقيف البيت يوضع عن كل زاوية فى السقف قدر محدد من أوراق شجر جوز الهند المصفرة • ولكنه لا يسمح للناس بعد هذه الأوراق لأن عدها يجلب سوء الحظ للبيت • فاذا كان عدد الأوراق أقل من المطلوب، لأنهم لم يعثروا على مزيد منها ، فانهم يؤجلون بناء البيت الذى قد يكون قد أوشك على الانتهاء • وهكذا قد يؤدى الخطأ فى تقدير الحساب الى خسارة كبيرة • ويمكننا أن نحكم بناء على ذلك على نظرة الناس الخطيرة فى عد الأوراق ، فأفضل لهم أن يضحوا بثمرة عملهم من أن يعدوها • وبالمثل فان هنود « شيروكى » فى شمال أمريكا « لا يعدون البطيخ أو الشمام ، كما انه لا ينبغى أن تفحص هذه الثمار عن قرب وهى ما تزال فى طور النمو ، والا حال ذلك دون نموها•

وقد حدث أن قام الضابط الحاكم فى « فورت سيمبسون » فى كولومبيا البريطانية ، بعمل احصاء لهنود المناطق المجاورة . فتوفى عدد كبير منهم إثر ذلك مباشرة بتأثير وباء الحصبة • ومن الطبيعى أن يعزو الهنود هذه الكارثة الى ما قام به الضابط من عد الزنوج ؛ تماما كما عزا الملك داود انتشار الطاعون الى جريمة عده لقومه » • ولا يحفظ هنود أوهاما عدد سنوات أعمارهم ظنا منهم أن الروح الشرير يمكن أن يصل الى مسمعه عدد هذه السنوات » •

ومثل هذه الخرافات ما تزال تعيش فى أوروبا وفى بلدنا حتى هذا اليوم • فقد كان « اللابيون » يعرضون ، ومن المحتمل انهم ما زالوا يفعلون هذا حتى اليوم ، عن عد أفرادهم ، وعن الجهر بعددهم المحدد ، اذ انهم يتوقعون أن هذا العمل نذير بحدوث كارثة قد تحدث اثر القيام بعملية العد مباشرة • وفى الأماكن الجبلية فى اسكتلندة ، « تتشاءم الأسرة بعد رءوس قطعان ما شيتها أو قطعان ماشية أخرى . وبصفة خاصة فى يوم الجمعة • فصاحب البقر يعرف كل واحدة بلونها وحجمها أو بأية علامة أخرى ، ولكنه من المحتمل أنه يجهل العدد الكامل للقطيع • كما أن الصياد لا يذكر عدد السمك الذى اصطاده فى رمية شبكة واحدة أو طوال اليوم ، لأن هذا يؤدى الى تغيير حظه فى صيد السمك » • وعلى الرغم من أن كل هذه الأخبار التى قدمناها قد اعتمدنا فيها على كاتب عاش فى القرن الثامن عشر ؛ الا أن مثل هذه التطيرات كانت تنتشر فى اسكتلندا حتى القرن التاسع عشر ، ومن المحتمل أنها لم تنقرض حتى يومنا هذا • وقد قيل لنا « انه يعتقد فى اسكتلندا أن الحظ العاثر يلحق بمن يذكر عدد قطعان الماشية أو الأفراس أو السمك أو أية منقولات أخرى يملكها الفرد ، حية كانت أم جمادا • كما قيل ان الاعتقاد ساد فى بعض الوقت فى أن انتشار وباء الجديرى يجىء فى أعقاب القيام بتعداد السكان » • ويحرص مجتمع الصيادين الذين يسكنون الساحل الشمالى الشرقى فى استكلندة على عدم عدسفنهم وهى فى عرض البحر بحال من الأحوال • كما أنهم

لا يقومون بعد جماعة من النساء أو الرجال أو الأطفال • ولا شيء يسيء الى جماعة الصيادات وهن يسرعن فى الشارع ليبعن السمك أكثر من أن يشار اليهن بالبنان ويذكر عددهن بصوت مرتفع • ولهذا فان زوجات الصيادين فى قرية « أوشميثى » ، وهى قرية تقع على شاطىء « فورفار شاير » ، ينزعجن لصياح الأولاد الأشقياء الذين يشيرون اليهن ويرددون هذه العبارات :

واحد ، اثنين ، ثلاثه

واحد ، اثنين ، ثلاثه

هل ترى عددا كبيرا من زوجات الصيادين

نعم اننى أرى عددا كبيرا منهن •

ولم يكن الصيادون يتشاءمون بعد أفرادهم فحسب ، بل كانوا يتشاءمون كذلك بعد سمكهم ومراكب صيدهم •

« ولا ينبغى للمزارع فى « لينكولن شاير » ، أن يعد شياهه على وجه التحديد فى موسم الاخصاب • وربما جاز لنا أن نعتقد أن هذا التحريم يرتبط بفكرة أن عد الأغنام على نحو دقيق يقدم للقوى الشريرة معلومات دقيقة تستخدمها فى ايذاء الماشية فى الوقت المناسب • ولقد رأيت راعيا تبدو عليه الحيرة لأن سيده كان يجهل الضرر الذى يلحق به من جراء اصراره على عد رءوس قطعان ماشيته • فعلى الرغم من أن هذا السيد كان متساهلا فى معاملة الراعى ، الا أنه كان يصر كل صباح على أن يعرف على وجه الدقة عدد الشياه التى ولدت • والسبب الذى دفع الراعى الى هذه الحيرة هو بعينه الذى يدفع الناس لأن يجيبوا حينما يسألون عن أعمارهن بقولهم : « اننى أبلغ من العمر ما يبلغ لسانى ، وأكبر بعض الشيء من أسنانى » وقد لاحظ « جايدوز » فى Melusine (ج ٩ ، ص ٣٥) أنه يتحتم على العجائز ألا يذكروا أعمارهم • فان اضطروا الى ذلك فانهم

يجيبون بأنهم يبلغون من العمر قدر خنصرهم • ويجيب الأهالى فى « جودار فيل هاينولت » عند ما يسألون عن أعمارهم بقولهم . « اننى فى عمر العجل ، فكل عام يساوى اثنى عشر شهرا » • ولا يقتصر التطير بعد الشياه على « لا نكولين شاير » ، بل ينتشر كذلك فى انجلترا • فقد كتب لى صديق يسكن فى قرية فى « وارفيك شاير » منذ بضع سنين يقول : « انه من العسير أن تموت الخرافات ، فبالأمس سألت امرأة عن عدد الشياه التى يملكها زوجها ، فأجابت بأنها لا تعرف عددها • ولما رأت الدهشة تشيع فى وجهى أضافت قائلة : « أنت تعرف يا سيدى أن ذكر عددها يجلب الشر » ثم قالت : « وعلى كل فنحن لم نفقد أى رأس منها حتى اليوم » • وقد كان زوج هذه السيدة موظفا فى البريد ويملك دكانا بالقرية ، أى كان من الناحية الفكرية أعلى مستوى من المزارع » •

ويحذر الناس فى الدانمارك من عد البيض الذى ترقد عليه الدجاجة حتى لا تطأ الدجاجة الأم البيض وتقتل أفراخها • فاذا فقس البيض ، لا ينبغى أن تعد الفراريج والا أصبحت فريسة سهلة للصقر أو الحدأة • وبالمثل لا ينبغى أن تعد الثمار أو زهورها والا ذبلت الزهور وسقطت الثمار قبل أوان نضجها • ويعتقد الناس فى شمال جوتلاند أنك اذا عددت الفئران التى اصطادتهم قطة ، أو تلك التى اكتشفتها صدفة ، فان عدد الفئران يتزايد • وبالمثل اذا عددت البراغيث أو القمل أو أية حشرة أخرى • وقد قيل إن الأرمن والاغريق كانوا يعتقدون أنهم اذا عدوا الدمامل فى أجسامهم فانها تتكاثر • وبالمثل فان هناك اعتقادا جرمانيا سائدا يدعو الى عدم عد النقود خوفا من نقصها • كما يعتقد سكان « بلاتينيت العليا » وهو حى فى « بافاريا » ، أنه لا ينبغى أن تعد الأرغفة وهى فى الفرن والا لن تنضج جيدا • وبالمثل يقول سكان«فرانكونيا العليا » وهو حى آخر فى« بافاريا » أنه لا يجوز أن تعد الزلابية فى أثناء طهيها لأنك اذا فعلت هذا ، فان النساء الصغيرات ساكنات الغابة اللاتى تشتهين هذا الطعام ، لن

تحصلن عن شيء منه • واذا حرمن من هذه الغذاء هلكن ، ومن ثم فان شجر الغابة يذبل ويموت • ولكى يتجنب الناس حدوث ذلك ، فانهم يحذرون من عد الزلابيا وهى فى طاسة التحمير • وتتبع مثل هذه العادة فى اسكتلندا وان اختلف سبب اتباعها بعض الشيء ، « اذ لا يجوز عد الكعك الذى يخبز فى البيت فى أثناء خبزه ، لأن الجنيات يأكلن الكعك الذى حصر عدده ، وهو ما زال فى الفرن ، ومن ثم فهو لا يمكث داخل الفرن حتى يكتمل نضجه » •

ويمكننا أن نرجع بناء على ذلك أن اعتراض اليهود فى عهد الملك داود على حصر عددهم ، لم يكن يرتكز سوى على أساس من التطهير الذى تأكد عند ما انتشر بينهم وباء الطاعون بعد اجراء عملية العد مباشرة • وما زال عرب سوريا حتى اليوم يكرهون فكرة أن يُعدوا أو أن يَعدوا ، فقد قيل لنا ان هؤلاء العرب يأبون أن تعد خيامهم وفرسانهم وقطعان ما شيتهم لأن الشر يلحق بهم ان هم فعلوا ذلك •

على أن المشرع اليهودى تساهل فى عادة تحريم تعداد السكان الى حد كبير فى العصور المتأخرة • فقد أباح أن يعد قومه على شرط أن يدفع كل فرد للحاكم نصف « شاقل » (١) جزية لحياته ، حتى لا ينتشر الوباء بين الناس • ويبدو أن غضب الرب بسبب ارتكاب جريمة تعداد السكان ، قد هدأ عند ما تسلم من الناس هذه الجزية المتواضعة •

---

(١) أى نصف مثقال من الفضة .